السموءل بن عادياء

كان القصر الأبلق يلوح مفردًا عاليًا بأسواره البيضاء اللامعة وأبراجه السوداء القاتمة، يشرف على فدافد الصحراء المحيطة به عند تيماء شامخًا فوق الجبل الوعر القاتم، كأنه قلة من قلاله صاعدة في السماء، تمر به القوافل صاعدة أو هابطة، فيكون علمها الفرد تهتدى به من مسيرة يوم، ويحل المسافرون في جواره ليتزودوا بالماء ما أصابوا ما طاب لهم من المقام في ساحته، ساروا عنه بعد أن يبعثوا إلى رب القصر بما تسخو به نفوسهم عن ارتياح ورضا آية على شكرهم له، أو ثمنًا لما لقوه من بره ومعونته.

وفتحت أبواب القصر في صباح اليوم من أيام الربيع، وخرج السموءل في ركب من أتباعه إلى المروج الخضراء المنبثة في بطون الوديان المجاورة؛ وكانت الشمس الساطعة تأتلق على صفحات الغدران الصافية المتجمعة في أحواض الصخر، وكان النسيم الوديع يهب عليها فتتجعد في دوائر متراقصة كأنما هي حلقات الدروع المحبوكة. وانسابت خيول الركب منحدرة من جوانب الجبل، كأنها الوعول في خفة وثبها وثبات خطوها. وكان كل فارس في عدة صيده كاملة، قد علق كنانة سهامه في كتفه، وتنكب قوسه واعتقل برمحه، ووضع إداوة الماء في مؤخر سرجه ومزود الطعام عند قربوسه.

فلما هبطوا إلى السهل ساروا خببًا، وكان السموءل يسير فى مقدمتهم يركب فرسًا أدهم ويتشح بحمائل سيفه فوق ثوبه الأبيض، وقد عقد عليه منطقة من الجلد الأحمر يظهر منها خنجر صغير، وكان رجلا فى تمام قوته، طويل القامة أبيض الوجه، ينظر بعينين حادتين من ثنايا حاجبين بارزين قد جمعهما يتأمل الأفق البعيد من دونهما، وكان أنفه الأقنى يشرف على شارب قصير مشذب، وتبرز من أسفل ذقنه لحية سوداء مقوسة. وسار من معه فى آثاره يحيطون به متخلفين عنه، ويصاحبونه وهم أبدًا على مسافة منه، إلا شيخًا أبيض اللحية كان يسير إلى جانبه تبدو على وجهه علائم القوة والصراحة، وتظله سحابة خفيفة من القسوة والصلابة.

وقضى الفرسان فى ذلك السير ساعة، وقد انتشروا وتفرقوا، وانفصل السموءل أمامهم يحدث الشيخ السائر إلى جانبه حديثًا هادئًا لا تشوبه كلفة، وهو حينًا بخاطبه، وحينًا يستمع منه فى إقبال واهتمام، يتذكران أنباء القبائل وأحداث الحروب، ويتناشدان الأشعار، ويتحاوران فى مظان الصيد ومسارب الوحش ومكانس الظباء.

التفت السموءل إلى صاحبه فى ثنايا ذلك الحديث، فقال له: «أرأيت يا أبا الجارود كيف لم يأت الربيع بن ضبع؟».

فقال الشيخ باسمًا: «فزارىّ وحق مناة! ما زال يحن إلى فزارة وإن احترش الضب عندها».

فابتسم السموءل وقال له: «أما تدع مناة يا أبا الجارود! أى حق تراه عليك لهذا الحجر الأصم؟».

فتبسم الشيخ وقال فى خفة، كأنه يعتذر عن ذلك القسم: «لا يخف على لسانى إلا اسمها. لست أعرف غير مناة، وأرانى لا أتذكر اسم إلهك».

فقاطعه السموءل ضاحكًا وقال: «ليس الذى سميته لك إلهى، هو نبى بعثه الله لقومى، هو موسى».

فعاد الشيخ إلى التبسم وقال: «نعم، نعم هو هذا، ما اسمه؟ موسى؟ أين رأيته يا أبا شُريح؟».

فقال السموءل ولا يزال يضحك: «لم أره؛ ولم يره أحد فى آبائى».

فأجاب الرجل فى شىء من الخبث: «لم تره ولم يره أحد من آبائك؟ ومن قال لك إذًا...».

وما كاد يتم قوله حتى لاح لهم فى السهل قطيع من بقر الوحش يجرى جافلا، ويحاول أن يستتر وراء الكثبان، أو فى ظل الشجيرات والأحجار. فقطع حديثه، وصاح فى حماسة، وهو يشير إلى ناحية القطيع: «صيد كريم، وحق مناة».

فالتفت السموءل مسرعًا إلى حيث أشار الرجل، ثم غمز جنبى فرسه بعنف، واندفع وهو يصيح فى حماسة قائلا: «دونكم صيدًا كريمًا وحق مناة!» ونسى فى هزته ما كان يلوم عليه صاحبه من الحلف باسم مناة.

فـإذا بالركب كله يصيح ويركض خيلـه، ويندفع نحو القطيع، وانقسـم الرجال شعبًا، اتجهت كل شعبة منها إلى ناحية، كأنهم ينفذون خطة مرسومة فى غير تكلف ولا تردد؛ فذهب بعضهم عند ثنيات الوديان وأحواض الماء، يترصدون لما يرتد من البقر إليهم؛ وذهب الشـيخ أبو الجارود فاتخذ لنفسه قترة من حجارة مرصوصة أقامهـا عند مدخل واد ضيق بقرب غدير ماء واسـع اجتمع من ماء المطر فى أحواض من الصخر، وربط فرسـه فى ظل شجرة بعيدة، وأقام هناك ينتظر أن يطرد أصحابه بعض الصيد نحو مكانه. ومضى اليـوم على القوم فى صيدهم حتى أظلهـم الليل، وعادوا وكل منهم يحمل ما أصاب من الحيوان، بعضهم يجعله أمامه، وبعضهم يجعله خلفه؛ وبعضهم يجعله عدلين على جانبى فرسه، إلا السموءل فإنه لم يحمل شـيئًا مما رمى، بـل تركه ملقى لعله يكـون زادًا لعابر سبيل جائع، أو سبع هائم من سباع البر. وعادوا جميعًا إلى القصر، إلا أبا الجـارود فقد أقام ليلته فـى قترته ينتظر الصباح. فقد عرف أن ذلك القطيع الذى شرده أصحابه فى مطاردتهم، سيأوى فى الليل إلى شـعاب الوادى متعبًا عطشان خائفًا، حتى إذا ما أصبح الصباح أقبـل على الغدران ليروى منها ظمأه قبل أن يرحل لارتياد مراعيه إذا علا النهار، فيصيب منه عند ذلك نصيبًا بغير أن يتكلف مشقة الركوب، وهو لا يقدر عليها فى مثل سنه.

وفى صباح اليوم التالى كان امرؤ القيس يسير مع أخته وأصحابه يقصدون قصر السموءل، وقد لاح لهم الجبل الأبلق عند الأفق، والشمس المشرقة تحاول أن تخترق سربال الضباب الرقيق الذى يلفه. ونظر امرؤ القيس إلى الألوان الساحرة التى تجلل رأس الجبل، وتحركت نفسه لهذا المنظر الفاتن، فالتفت إلى صاحبه عمرو بن قمية، وكان يسير إلى جانبه، فقال له وهو يشير إلى الجبل: «إنه لمنظر أنيق يا عمرو!».

فأجاب عمرو فى غير اكتراث: «هذا هو الجبل الأبلق».

فقال امرؤ القيس: «ولكنى لا أرى القصر».

فأجابه عمرو: «إنك لا ترى القصر إلا إذا قربت منه. إنه يطلع عليك فجأة كأنه يخرج من بطن الجبل».

فعاد امرؤ القيس ببصره إلى الجبل، وذهب يتأمله، ثم قال كأنه حالم: «ليت شعرى، أيوصلنى الرجل إلى الحارث؟».

فنظر عمرو إليه وقال فى تردد: «يقولون إنه صاحب نجدة ومروءة».

فالتفت إليه امرؤ القيس مسرعًا وقال فى شىء من اللهفة: «ألم تعاشره يا عمرو؟ ألست تعرفه؟».

فقال عمرو: «لم أعاشره إلا قليلا يا أبا الحارث. ولكن الربيع ابن ضبع الفزارى يكثر من التحدث عنه، ويقول إنه قد يطرب فإذا به أسخى من عرفت، ثم قد يغضب فإذا به أصلب من رأيت».

ثم صمت لحظة واستأنف قائلا: «إنه كما يقولون صاحب نجدة إذا استطعت أن تحركه».

فقال امرؤ القيس مسرعًا: «إذا استطعت أن أحركه! وما السبيل إلى ذلك؟».

فسكت عمرو حينًا، ثم قال كأنه عثر على أمر كان غائبًا عنه: «إنك رجل شاعر».

فقال امرؤ القيس في دهشة: «وما ذاك؟».

فأجاب عمرو: «إنه يطرب للشعر إذا سمع منه ما يهزه».

ثم التفت إليه متبسمًا وقال في مرح: «وإنك لتقول من الشعر ما يهز ويطرب، فهلم فهذه سبيلك إليه».

وكان قد بلغا في سيرهما حافة واد عميق ضيق ظهر لهما بغتة في السهل الذى كانا يسيران فيه، وكانت طريقها تحف بأعلاه في ممر وعر لا يستطيع الركب أن يسير فيه إلا واحدًا بعد واحد، فهو من جانب ينحدر إلى هوة الوادى العميقة، ويكتنفه من الجانب الآخر جدار عال من الصخر لا يترك فيه إلا متسعًا قليلاً للسير، فأحس امرؤ القيس أنه لا ينبغى له أن يترك أخته هند تسير بعيدة عنه في مثل هذه الطريق الصعبة، فتمهل في سيره حتى يدركه أصحابه الذين كانوا لا يزالون يسيرون على مهل في أقصى السهل ترفقًا بالسيدة التى معهم، وجعل يتأمل في الوادى الذى يتعرج عميقًا من تحته توشى أرضه قطع من الأعشاب كأنها نقوش رسمها

صانع عبقرى متأنق، وتلمع فى نواحيه غدران من الماء المتجمع فى أحواض الصخر، فالتفت امرؤ القيس إلى عمرو وقال له: «أترى هذا الوادى فى تعرجه ونقش أديمه؟».

فنظر إليه عمرو باسمًا وقال له: «ليست لى عين شاعر يا أبا الحارث».

فقال امرؤ القيس كأنه يحدث نفسه: «إنه كظهر الحية. أما ترى نقشه؟».

وفيما كانا مأخوذين بجمال ذلك الوادى رأيا بقرة وحشية تسير على حذر كأنها مروعة من خوف عدو، تميل أحيانًا إلى خميلة من النبات فتخضم منها خضمة، ثم تتلفت حولها فى ذعر وتوجس، ثم اقتربت من غدير، ووقفت على حافته لحظة ومالت تريد أن تجثو على عقر الحوض لتشرب، وما كادت تفعل حتى لمع سهم فوق فرائصها، فوقعت فى مكانها تضطرب، وتحاول القيام فلا تستطيع، فصاح امرؤ القيس: «يا لها من رمية! أرأيت يا عمرو».

فصاح عمرو يجيبه: «هذا هو الرجل يعدو إليها».

فإذا رجل يخرج من وراء كومة من الحجارة على مسافة من الحوض فيدرك البقرة، ويذفف عليها، ثم يقف ناظرًا إلى القوس التى كانت فى يسراه، ويثنيها ويصلح من وترها.

وكان الركب قد اقترب من حافة الوادى، فأسرع الربيع بن ضبع الفزارى ذاهبًا إلى صحابيه لينظر ما شأنهما. فالتفت إليه

امرؤ القيس وأشار إليه أن يقترب، ثم أشار إلى الرجل الذى فى أسفل الوادى وقال فى لهجة الإعجاب: «أما إنه لرام!».

وأردف عمرو قائلا: «لقد رمى البقرة فى فرائصها فما تحركت من مكانها».

فنظر الربيع إلى الرجل لحظة، ثم قال: «إنه أبو الجارود الثعلى».

ثم رفع صوته ينادى الرجل: «هذا أنت يا أبا الجارود؟».

فالتفت الرجل مبغوتًا إلى أعلى الوادى ليرى ذلك المنادى، فرأى الرجال الثلاثة ينظرون إليه، وحدق فيهم لحظة فى شىء من الكراهة، ثم انفرج وجهه عن ابتسامة إذ عرف مناديه، وصاح به مجيبًا: «هذا أنت يا ربيع؟ متى أقبلت؟».

فأسرع الربيع نازلا إليه على جانب المنحدر الوعر، وتبعه صاحباه حتى بلغوا أسفل الوادى؛ وجاء الرجل يستقبلهم باسمًا، وأقبل نحو الربيع فعانقه فى مودة، ثم سار معهم نحو قترته.

وجلس على صخرة، وجلس القوم حوله وأخذوا فى الحديث، فقال امرؤ القيس: «أما إنها لرمية معجبة!».

فارتاح الشيخ إلى هذه التحية، والتفت إلى امرئ القيس فسأله: «وهل تحسن الرماية؟».

فأجاب امرؤ القيس فى شىء من الزهو: «لست أرمى إلا راكبًا».

فتحرك الرجل وقال فى شىء من الأسف: «لقد كبرتُ يا بن أخى. ممن أنت؟».

فأجاب امرؤ القيس فى تردد: «من كندة».

فنظر الشيخ إليه باهتمام وقال: «لعلك ممن كان مع ابن حجر؟».

فقال امرؤ القيس واجمًا: «أنا ابن حجر».

فتقدم الشيخ إليه مسرعًا وعانقه فى مودة، وقال له: «مرحبًا بك أيها الأمير الكريم، إن لآبائك لمكارم فى عنقى».

فتحرك امرؤ القيس جائش النفس، ولم يرد أن يستمر الحديث فى شأن نفسه. خوف أن تثور به أشجانه، فقال مغيرًا مجرى القول: «أرنى هذه القوس يا أبا الجارود».

فناوله الرجل قوسه، وجعل امرؤ القيس يتأملها فى اهتمام، ثم سأله: «إنها لقوس عجيبة، إنها زوراء شديدة. وما ذلك العود».

فقال الرجل فى شىء من المباهاة: «إنها من عود النشم».

ثم قال مبتسمًا ولا يزال فى لهجة المباهاة: «ولكنها يدى التى ترمى».

فتدخل الربيع فى الحديث قائلا: «أصبنا بالأمس فى سيرنا أخت هذه البقرة ملقاة فى سبيلنا وقد رميت فى نحرها».

فقال الشيخ: «هى لا شك رمية السموءل».

فقال الربيع: «لقد عرفت ذلك. عرفت أنه صاحبها. وكيف تركت أبا شريح؟».

فقال الشيخ فى عطف: «لقد كان يسأل عنك يا أبا مالك».

فقال الربيع متحركا للقيام: «نحن سائرون إليه، حقًّا لقد طالت غيبتى عنه».

فقال الشيخ: «أما تقيمون حتى أطعمكم من صيدى؟».

فقال الربيع قائمًا: «هنيئًا لك صيدك يا أبا الجارود، ولكننا نريد أن نبلغ القصر اليوم».

ثم نظر إلى أصحابه يدعوهم للمسير، فرأى امرأ القيس يتأمل الشيخ، ويتتبع حركاته فى اهتمام، فقال له ضاحكًا: «أرى الرجل قد أعجبك يا أبا الحارث».

فقال امرؤ القيس فى شىء من الخجل: «لم أر راميًا مثله».

فأردف الربيع قائلا ولا يزال يضحك: «كأنى بك بعد حين قائل فيه شعرًا».

فتبسم امرؤ القيس ولم يجب وقد زاد به الخجل. فنظر إليه الشيخ فى مرح وقال: «إذا كانت قائلًا فىَّ شعرًا، فالآن».

فصاح عمرو فى حماسة ومرح: «نعم الآن يا أبا الحارث، الآن».

فقام امرؤ القيس، وقد أعداه مرح أصحابه ونظر إلى أبى الجارود، وأجال بصره حينًا فى المكان، وجعل يتأمل القترة والقوس والسهام والبقرة، ثم أطرق حينًا وهو يسير فى خطوات بطيئة، وأصحابه ينظرون إليه فى صمت وعطف منتظرين إنشاده؛ وبعد لحظات أقبل عليهم باسمًا فقال:

رب رام من بنى ثُعلٍ   مخرج كفَّه من قُتره
عارضٍ زوراء من نشم   غير باناة على وتره
إذ أتته الوحش واردة   فتتنى النزع فى يسره

فرماها فى فرائصهــــا بإزاء الحوض أو عُقُــره
برهيش مــن كنانتــــه كتلظى الجمر فى شرره
راشه من ريش ناهضــة ثم أمهاه على حجــــره
فهو لا تنمــى رَميَّتُــــه ....

ووقف عن إنشاده حينًا كأنه لا يجد تتمة قوله، ثم رفع يده فى شيء من العنف كأنه يقر بعجزه عن إتمام البيت وصاح ضاحكًا:

«ما له! لا عُدَّ من نفره!».

فعلا ضحــك القوم، وقام إليه أبو الجــارود فاحتضنه فى عطف وقال له: «مالك أنت؟ لا كنت من نفرك»!

وتقدم نحوه الربيع وعمرو ضاحكين يصافحانه ويعيدان ما حفظا مــن قوله فى إعجــاب ومرح. ثم قــال الربيع يخاطــب صاحبيه: «هلم فإنا لن نبلغ القصر قبل المساء».

والتفت إلى أبى الجارود قائلا: «أما تعود معنا إلى القصر؟».

فقال أبو الجارود: «وهل كنت لأضيع صيد المســاء؟ سألحق بكم فى الغد فأضيِّفكم هناك».

فحيَّــاه الربيع وأصحابه وتنقلوا فى جانــب الوادى حتى بلغوا أعلاه، وما هو إلا قليل حتى كان الركب يســتأنف الســير فى تجاه الجبــل الأبلق، وهم يتحدثون عن صيد أبــى الجارود، وعن وصف امرئ القيس.

وفى أثناء الطريق مال عمرو إلى امرئ القيس وقال له هامسًا: «لقد وجدت وسيلتك إلى السموءل وحق مناة». فنظر إليه امرؤ القيس مستفهمًا ولم يجبه، واستمر عمرو فقال: «إن أبا شريح لا يعجبه شيء مثل شعر الصيد... أو الغزل».

وكانت الشمس تميل للغروب، عندما كان الركب بجانب باب القصر الأبلق ينتظر إذن صاحبه الكريم فى الدخول.

* * *